الفصل الأول

فِقْهُ الاتِّصَالْ الغَيْبِيّ

والبَلاغِ النَّبوِيّ في العقيدة الإسلامية

معالم النَّظريَّة
والنَّماذجُ التَطْبِيقِيَّة (نَموذجُ الوَحْي)

إنَّ الله تعالى أرسل الرسل لحاجة فطرية لدى البشر إلى الأديان، والرسالات الإلهية إلى البشر حالة اتصالية تحقق ضرورة اجتماعية لدى الإنسان وتشبعها، ولا غنى عن الوحي الذي يأتي للأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

فالاتصال الرباني بالناس اتصال عبر وسطائه وهم الرسل، وهذا الاتصال عبر وسيط لمقابلة الافتقار إلى المعلومات الضرورية، ولإشباع نفس الإنسان بالطمأنينة والسكينة بإخراجه من عزلة الكفر، ويحقق هذا الاتصال راحة أيضًا بإيجاد شعور الانتماء إلى جماعة متحدة الأفكار والشعور والمرامي بما يفضي لدى الفرد الواحد في هذه الجماعة بالاستقرار النفسي والتقوِّي الوجداني والعاطفي.

والاتصال الرباني بالناس عبر الرسل كذلك يحقق للأفراد في المجتمع المتلقي ذواتهم من خلال التأثر بالقدوة وتمثُّلِ سلوكه ونقله إلى الآخرين، ومن ثَمَّ الشعور بالنجاح والرضا عن الذات والآخر، فيندفع الآخرون لمشاركتنا في منافع عامة للجميع.

دعائمُ الاتِّصالِ الإيماني:

لكل نظرية دعائم فلسفية تقوم عليها وفق المذهبية التي تتولَّد عنها، وهذه تمثل مجموع الأفكار التي ترسم معالم القواعد الفكرية التي تنبت عليها معاني الفهم البنائي لهذه النظرية، ويقوم الاتصال الإيماني على:

1. الغيب والإيمان به، مصدرًا للاتصال.

2. الوحي والإيمان به، وسيلة للاتصال.

3. التنزيل والإيمان به، رسالة تم توصيلها.

4. الرسول والإيمان به، قائمًا بالاتصال صادقًا في إبلاغه.

وهذه الدعائم تستند كلها على كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وتتفرع عنها، ولكن تفصيلها على هذا النحو يبيّن لنا أطراف الاتصال الإيماني في بُعده النظري باعتبار أن الله عز وجل هو المرسل للرسل، وأن جبريل الملك هو الرسول الكريم والروح الأمين على الوحي ومبلغه إلى رسول الله إلى الناس فيتلقاه عنه، ومن ثمَّ يبلغه إلى الناس، حيث يتم الاتصال بتدفق المعلومات على مرحلتين، في المرحلة الأولى إلى الرسول ﷺ، وفي المرحلة الثانية من الرسول ﷺ إلى الناس.

فالمرحلة الأولى مرحلة غيبيَّة، ويتم فيها اتصال خاص بالأنبياء. والمرحلة الثانية مرحلة مشهودة يتم فيها اتصال عام بالناس كافة.

ويمكن تصوّر النَّموذج النَّظري للاتصال الإيماني فيما يلي:

عبر ظاهرة الوحي وحفظ القرآن:

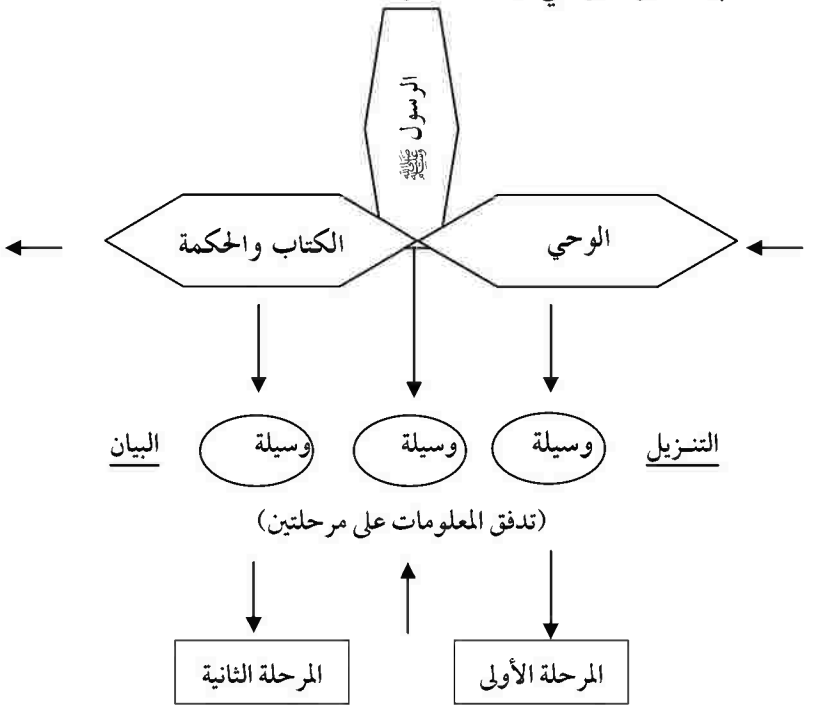

القاعدة النظرية في هذا النموذج: أن الوسيلة هي الرسالة، بمعنى أنها تلخّص كل العملية الاتصالية من حيث جريانها نظريًّا، فالرسالة هي (النقل) وهذا يتفق مع المصطلح الفقهي الذي يفيد الاتصال أيضًا.

(أ) نموذج نظري للاتصال الرباني

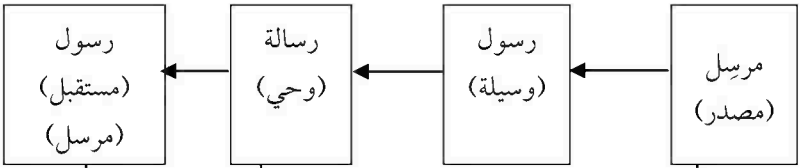

(ب) نموذج نظري للبلاغ النبوي

(ج) نموذج نظري لعملية الاتصال لنشر الدعوة

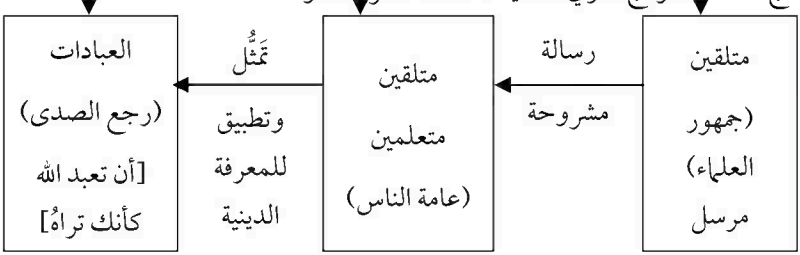

في هذه النماذج الثلاث نجد ثلاث مراحل لتدفق المعلومات ولكنها مراحل غير متقطعة أفقيًّا وإنما تدفّق مُمَرحل، تكون لكل مرحلة وسط اتصالي مختلف عما سبق ثم تتكامل بحيث يتلقى المصدر الأول رجع الصدى، فمثلًا الصدى في العبادات والمعاملات.

أولا: خواص الاتصال الغيبي:

1. اتصال سريان المعرفة فيه على مراحل من المصدر إلى الجمهور المستهدف بالرسالة.

2. إجراء الاتصال عبر وسيط ذو كفاءة وقدرة على النقل عن وسط اتصالي إلى وسط آخر باعتباره وسيلة فذَّة ولا بديل لها ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير].

3. المصدر على معرفة تامة بلا نقصان عن المتلقين واعتبار حالهم وقدراتهم في الاتصال، (كونه تعالى عليمًا).

4. يتولى المصدر إجراء الاتصال وإنجاحه وضمان دوام التأثير في هذا الاتصال، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة].

5. التأثير المتوقع لدى الجمهور هو تغيير المعارف، ومن ثَمَّ الاستجابة لمحتوى الرسالة بالتطبيق ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ [فصلت: 44].

6. استخدام اللغة والرموز الأخرى، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: 28].

7. اعتبار المصدر للخبرات السابقة من الاتصال إطارًا مرجعيًّا لفهم الاتصال الأخير، ولذا أوجب الاعتراف بالعقائد السابقة وتقوم على آليتين مهمتين هما:

(أ) تصفية المعلومات الخاطئة من الخبرات السابقة بكشف التحريف الذي تم في الكتب المنزلة للرسل السابقين.

(ب) تمرير المعلومات الصحيحة من جديد مقارنًا لتقوية المخزون المعرفي لدى المتلقين، ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: 6].

8. التماثل المطلوب في النشاط الاتصالي بأن جعل الله تعالى القرآن بلغة العرب وهو القوم المخاطبين أصالة ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل].

9. الإيمان بالغيب سهَّل تلقي الرسالة الاتصالية ويُقيم اتصالًا معرفيًّا إدراكيًّا في نفس المتلقي نحو المصدر.

10. محتوى الرسالة ذو نفاذ مستقبلي للبشرية لعلم الله السابق بحاجة الناس للدين الخاتم.

11. شمول وعموم المحتوى الرسالي يضفي على الرسالة التميّز والرقي.

12. تميّز المحتوى ورقي الرسالة يعكس ارتقاء قدرات المتلقين المتأثرين بها، وهذه صورة غير مباشرة تثبت علميًّا انحطاط الكفر فكريًّا ومعرفيًّا، وهذا ما أكَّدته الرسالة باستمرار في القرآن.

والقرآن الكريم نزل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا وعن طريق جبريل عليه السلام إلى الرسول ﷺ، وعن طريق الرسول ﷺ إلى الناس. وقد جمع القرآن في المصحف وقام كتَّاب الوحي بتدوينه وسيلة لهداية الناس عبر القرآن، وهو كتاب بين ظهرانينا يتسم وجوده بالثبات والدوام بحفظ الله تعالى له كأعظم وسيلة إعلامية غيَّرت مسيرة البشرية.

وقد لخَّص القرآن نفسه الاتصال الرباني بالرسل وبالرسول عليه الصلاة والسلام في بعديه (التنزيل والكتاب)، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

وهذه الآية هي التي تلخِّص العملية الاتصالية بمراحلها التي عرضنا لها وحاولنا شرحها علميًّا على المستوى النظري بنماذج توضيحية. فالنزول بالقرآن من الله تَمَّ بواسطة الروح الأمين (أي المَلَك جبريل عليه السلام) الذي وصفه الله تعالى بأنه: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾

[التكوير:20] في القرآن إذ إن الرسالة إلهية وليست بشرية تحتاج لمثل هذه الوسيلة الخاصة ذات القدرات العالية على تحمّل مشاق الاتصال الإلهي، والهدف من العملية الاتصالية هو (قلبه) عليه الصلاة والسلام، والقرآن الكريم يُعرِّف العملية التي تجري بين الله وعباده من نقلٍ للمعلومات بالوحي إلى رسله وأنبيائه بأنه إجراء اتصالي، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [القصص] (1). ومعنى الإخبار الذي أورده قتادة يفيد معنى (الإعلام والاتصال) لنقل معرفة محددة تضمنتها الرسالة إلى المتلقين.

والإعلام الرباني يهتم بتنقية الأجواء الاتصالية من التشويش الذي يؤدي إلى الضلال، وليس ذلك فقط بتعديل الخبرات السابقة وتصفية الأخطاء المدخلة على المعلومات القديمة، والمتمثلة في تصحيح العقيدة من التثليث والشرك بغير الله وتصويب الأخبار الواردة في الكتب السماوية السابقة، وذلك بتهيئة المتلقي نفسه ليكون قادرًا على التلقي في حالة نفسانية طيبة مهيئة ومعدّة سلفًا للقبول والرضا بمحتوى الرسالة القادمة عبر الإعلام الرباني، ويوضّح القرآن الكريم في مواضع كثيرة عملية التهيئة التي تتم للمتلقي لاستقبال

(1) محمد علي الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير، مج3، ص16-17.

الرسالة بإرادة المصدر المرسل لها، يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر].

ويقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى].

ثانيًا: أنواع الاتصال الغيبي وطبيعته:

للاتصال الغيبي أنواع متعددة بحسب حالات التلقّي والاتصال ووسيلته والرسالة، ويمكننا أن نجمل هذه الحالات في أنواع متميّزة عن بعضها البعض:

1. إلقاء الله تعالى المعنى في قلب النبي ﷺ (مباشرة) ويكون ذلك في اليقظة، أو المنام.

2. إلقاء الله تعالى المعنى في قلب النبي ﷺ بغير واسطة الملك، ويصاحب الإلقاء في هذه الحالة خلق علم ضروري عند النبي ﷺ أن هذا المعنى قد قذفه الله قطعًا ولا يحتمل الشك، أو التأويل.

3. بالرؤيا الصادقة كما في قصة سيدنا إبراهيم مع ابنه إسماعيل.

4. من وراء حجاب كما كلَّم موسى تكليمًا من غير واسطة.

5. إرسال مَلَك الوحي مع حصول علم ضروري بأنه مَلَك

الوحي يبلغه عن الله تعالى.

ولأن المعاني المرسلة من مصدر الوحي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام إنما تأخذ خصوصية بأن يعطي الله علمًا إدراكيًّا لماهية هذه الرسالة وما هو المعنى المقصود والحقيقي لمضمون معلوماتها، أو أن الذي يبلغ هذا قطعًا قادم إليه من المصدر الإلهي، وهو ما سمَّاه علماء العقائد (بالعلم الضروري المخلوق في قلب النبي أثناء الوحي)، ودليله عندهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: 105].

فما أراه الله سبحانه وتعالى لنبيه بشأن الرسالة موضوع الاتصال الرباني هو المفتاح الحقيقي لفك رموز وشرح طلاسم المعلومات الحقيقية المقصودة بها وليست ظاهر معاني الكلمات أو غيرها فحسب. وفي هذا يقول عمر بن الخطاب: [لا يقولَنَّ أحدٌ قضيتُ بما أراني الله تعالى، فإنَّ الله تعالى لم يجعل ذلك إلا لنبيه].

ولذلك فإن طبيعة الاتصال الرباني هي: إجراء غيبي لا يدركه إلَّا الأنبياء على حقيقته دون سائر الناس العاديين كما في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة].

وما لا يبصره العاديون من الناس يبصره الرسل أثناء الاتصال الرباني ويدركونه بإرادة الله ؛ ولا يتكلفون ما يقولون للناس كما يفعل الشعراء، ولا يستوحونه من مصادر مجهولة كما يفعل الكهَّان ؛ وإنما ذلك تنزيل من رب العالمين.

هذه هي طبيعة الاتصال الرباني، وهو اختصاصيٌ للرسل دون غيرهم اختيارًا لهم واجتباء وتفضيلًا عن بقية الناس، ولذلك لا يمكن القول بأن الوحي اتصال عمومي يمكن أن يحصل لغير الأنبياء والرسل، وهذا يجعله طرازًا فريدًا في الاتصال بخصوصية المصدر وخصوصية الوسيلة الناقلة وخصوصية محتوى الرسالة التي هي موضوع الاتصال وخصوصية المتلقي وهو نبي مرسل مهيأ لهذه المهمة تهيئة خاصة وممتازة دون الخلائق، ولهذه الطبيعة الخاصة للاتصال لابد من الإيمان بالغيب والوحي والتنزيل والرسول.

ثالثًا: المصدر في الاتصال الغيبي:

لأن الله جلّ وعلا هو المصدر للرسالة الإلهية لأنبيائه ورسله ولمن يشاء من عباده، فإن مصدرية الرسالة أصيلة، وليس كما في الاتصال البشري العادي، الذي هو نقل من مصدر آخر دائمًا، مثل مصادر الأخبار والأحداث ومواقعها وأشخاصها الذين هم صنَّاع الأحداث، وما قد يعتري الاتصال، فالرسائل التي تصدر عن الناس فهي عن

علم مكتسب منقول بطبيعته عن آخرين، ولله المثل الأعلى، فصفة العلم والحكمة فيه كما جاء في الحديث: « **اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ** »(1).

فالمصدرية أصيلة في هذا النوع من الاتصال في المرسل وهو (العليم الحكيم) ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الحديد]، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام]، ﴿ لِّتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق].

لذلك فإن حدث الاتصال نفسه سابق في علم الله تعالى، يعلم جلَّ وعلا متى وكيف ومع من ولماذا وأين سيُجرَى ومن سيتلقّاه عن رسوله بإذنه.

ثم إنَّ المصدر محيط بعلمه وسمعه وبصره كلَّ مراحل جريان

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقال عند النوم وأخذ المضجع، حديث رقم (61).

الاتصال إحاطة شمول للسوابق والحال واللّواحق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء].

والوحي والعلم الرباني بسائر أنواعه لطف إلهي للبشر كما أنه إرادة كونية بقدرته، ومشيئة ربانية بكل ما شاء فعله - والوحي والعلم- منه، ودليله في علم العقيدة ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

والمصدر في الاتصال الغيبي ليتلقّى (رجع الصدى) دومًا سميعًا بصيرًا بعبادة عباده بالطاعات التي أمر بها الوحي، عالمًا بأحوالهم فردًا فردًا، وليس هذا فحسب فإن (رجع الصدى) مع علم الله تعالى به تفصيلًا فهو مكتوب موثّق في كتاب العبد بالملكين، وهذا يعطي رجع الصدى صفة الثبات والقابلية للاطلاع، وهذا ما يجري يوم القيامة (1) ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه].

رابعًا: أساليب الاتصال بالوحي (خصائص الوسيلة):

يأخذ الوحي أساليب مختلفة بإرادة الله تعالى كما يلي:

---

(1) راجع نموذجنا السابق والتعليق الشارح له.

1. ظهور جبريل في حالته المَلَكية الحقيقية كما حدث في غار حراء، وليلة الإسراء والمعراج عند جنَّة المأوى.

2. إتيان صوت قوي يشبه صلصلة الجرس يقرع سمع الرسول ﷺ قرعًا ويحيط به من كل جانب، ثم ينفصم الصوت عنه وقد وعى ما قاله.

3. ظهور المَلَك في صورة رجل عادي يراه الصحابة ولا يعرفونه، ويتحدث حديث الرجل العادي معه ويسمع كلامه من حضر ويفهمه.

4. أن ينفث في روع الرسول ﷺ -أي: في عقله وفؤاده- بمعنى خاص يدركه ويعرفه دون أن يسمع أو يرى.

ومن صفات الاتصال بالوحي ومميزاته ما يلي:

* أنه اتصال مفاجئ يطرأ على الرسول ﷺ من غير تشوّف إليه أو تطلّع له.

* أنه اتصال إلزاميٌّ، ومظهر ذلك:

* تغيّر الحالة العادية للرسول ﷺ، كاحمرار الوجه وتصبب العرق، وثقل الجسم، وأن تبرك الدابّة إن كان على ظهرها أثناء الاتصال.

* تغيّر حالته النفسية من الهدوء إلى الخوف الشديد، ولاسيما أثناء التلقي الأول.

* أنه اتصال مستقل عن ذات الرسول ﷺ، بمعنى أنه لا يستطيع إجراءه بنفسه، فالوحي كان أحيانًا يغيب ويستبطئ عنه.

* أنه اتصال اختصاصي؛ اصطفى الله تعالى له الرسل برحمة يمنحها من يشاء ويمنعها عمَّن يشاء.

ونتيجة اتصال الرسل بالناس العاديين (عوامهم) هو الذي يفيد تلقّيهم للرسالة الإلهية وتمثُّلها وتطبيقها، ومن ثَمَّ يؤكد الاتصال الروحي بمصدرها وهو الله عزَّ وجلَّ وعلا.

فالقرآن هو الذي جعل وجهة المسلم (المستقبل) لمضامين الوحي وجهةً نحو الله (جعل الله العبادات علامة الاتصال الدائم بالمصدر الأكبر، وجعل ممارستها في أوقات معيَّنة مرتبطة ببناء الإرادة وتأهيل النفس الإنسانية لقطع استمرار أي عمل دنيوي في سبيل الغاية الربانية...) [1].

خامسًا: خصائص الرسالة في الاتصال الرباني:

الرسالة التي يحملها الوحي عبر الرسول إلى الناس لها صفات وخصائص عامة ذات قيمة مهمة وهي:

---

(1) عالمية الإسلام، أنور الجندي، 1977م، ص86-87، دار المعارف، القاهرة.

1. **خاصية الخلود**: باستمرار بقائه وامتداده في الزمان والمكان ما دامت البشرية، لأن الإنسان لم يستغن أبدًا طوال تاريخه عن الدين.

2. **خاصية الشمول**: الرسالة الإلهية عالجت قضايا العقيدة والعبادات والأخلاق والقوانين والاقتصاد والحرب والسلم وعلاقات الإنتاج والنشاط الفردي والعادات المدنية كاللباس والطعام والزيارات والأعياد.

3. **خاصية اليسر والسهولة**: رسالة من مصدر متصف باللطف والعدل والرحمة والحكمة فجاءت التكاليف ممكنة ميسورة والمعارف واضحة المعاني مفهومة مراعية لطاقة الإنسان وقابليته الذاتية، يقول تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء].

4. **خاصية الإنسانية**: لتوطيد أواصر المحبة والأخوة ونبذ الطبقية والعنصرية والحزبية والقوة والنشاط والتمايز بالمال، أو النسب، أو الجاه والمكانة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

ومن هذه الخصائص في (الرسالة) يمكننا أن نجمل إجمالًا أهداف الاتصال الرباني بأنه يقصد إلى:

1. توثيق الصلة والعلاقة بين الإنسان وربه.

2. الحفاظ على نظام طيِّب نافع نظيف وعادل للعلاقات بين المخلوقات نظامًا للحياة البشرية.

3. تنمية الوعي بالعلم بالله تعالى، والارتباط الكوني بالخالق عزَّ وجلَّ.

4. إعمار الأرض وبناء الحضارات بالحق.

سادسًا: التشويش على الرسالة:

قام رسول الله ﷺ بتبليغ الرسالة وأمر بنشرها بين الناس وتعليمهم، وهناك معوِّقات في طريق البلاغ يمكن تلخيصها في:

(أ) تباين القدرة على الإدراك والفهم لدى المتلقين من حيث المستوى العقلي والاستعداد الفطري، ومن ثَمَّ ضعف الاستجابة، أو قوتها، وذلك وفق مقدار (الجهل).

(ب) عدم الانتباه للمؤثر الرسالي بالانصراف النفساني عنه، وهي خاصية (الغفلة)، وهي مفهوم يؤدي للتعرض الانتقائي للرسالة (Selective exposure).

(ج) الصراع السيكولوجي داخل النفس البشرية التي ألهمت الفجور والتقوى في آنٍ واحدٍ معًا. وهو ما نُسمِّيه بـ (صراع المنبهات)

مثل الدنيا وحبها والشيطان وإغوائه والنفس الآمرة بالسوء وأهوائها.

(د) الضغوط الخارجية على المدعو والداعية في تبليغ الرسالة والعوائق التي توضع أمامه، وهو ما نسميه بـ (التشويش المعادي) الذي يؤدي إلى حالة التأثير المحدود.

(هـ) الافتراض المسبق: وهو نوع من الإطار المرجعي (Frame of reference) يمثل خبرات سابقة قد تكون مورثة أو مكتسبة، مثل الجمود في عقائد الآباء الأولين وهو نوع من التمسك بالخبرات القديمة التي صارت (نمطًا جامدًا) وقناعة صلبة (Stereo types).

(و) العرض المختل للرسالة من الدعاة قد يؤدي إلى التشويش أيضًا، وهذا إما يعود لقدرات الداعية أو لعدم تمثله لما يدعو إليه، أو تحريف الكتب السماوية.

(ز) إغلاق قنوات الاتصال: مثل نماذج محاربة الدين بالقهر من السلطة، أو القوى العالمية ذات النفوذ بحيث يمنع وصول معلومات كاملة عنه إلى الجمهور المستهدف بالرسالة وهم (الناس جميعًا).

سابعًا: تنقية الرسالة بالتثبت والمصدر الموثوق:

إن القرآن الكريم تولّاه الله بالحفظ وأن الحكمة - وهي السُنَّة النبوية- قد تمَّ وضع ميزان دقيق لمضمونها، ونقل ذلك المضمون

بسلامة ودقة إلى جمهور المؤمنين، والمصدر الموثوق لأي خبر للإعلام في نظر القرآن يستند إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات].

وفي هذه الآية: دليل على أن خبر الفاسق لابد من التثبت فيه بخلاف خبر العدل الصادق، فهو مقبول وليس بحاجة إلى التبيّن، وهو ما يسميه مصطلح الإعلام الحديث بـ (المصدر الموثوق).

وخبر الواحد يعتبر موثوقًا ؛ لأن خبر الآحاد حجة في الأحكام والعقائد والأدلة على حجية خبر الواحد كثيرة، وفي الرجوع إلى إحدى أمهات المؤمنين عند الخلاف شاهد على ذلك من عصر الصحابة ﷺ، وكان الرسول ﷺ يرسل الأمراء والقضاة والرسل إلى الأطراف - وهم آحاد- لقبض الصدقات وحل العهود وتبليغ أحكام الشرع [1].

والحقيقة فإن هذه الآية ما زالت موضع اهتمام المفسرين وعلماء الرواية وأصول الفقه، لتطرقها لموضوع مهم في حياة المسلمين وهو كيفية قبول الرواية وتصديقها، وقد استدل فريق من العلماء بهذه الآية

(1) عبد النبي عبد الرحمن بن علي الشريف، التعليقات المفيدة، 1984م، ص37-38، دار طيبة، الرياض.

على جواز العمل برواية الآحاد، وهي الرواية التي يرويها واحد، أو اثنان، أو ثلاثة، ما لم تبلغ حدَّ التواتر.

وفي هذا يقول آخرون: [الركون إلى الخبر بمعنى ترتيب الأثر عليه عملًا، ومعاملة مضمونه معاملة العلم الحاصل للإنسان من طريق المشاهدة، والنظر في الجملة مما تتوقف عليه حياة الإنسان الاجتماعية توقفًا ابتدائيًّا، وعليه بناء العقلاء ومدار العمل].

فالخبر إن كان متواترًا، أو محفوفًا بقرائن قطعية توجب قطعية مضمونه، كان حجة معتبرة من غير توقف فيها، فإن لم يكن متواترًا، ولا محفوفًا بما يفيد قطعية مضمونه، وهو المسمى بخبر الواحد اصطلاحًا كان المعتبر منه عندهم ما هو الموثوق به بحسب نوعه، وإن لم يفده بحسب شخصه، وكل ذلك لأنهم لا يعملون إلا بما يرونه علمًا، وهو العلم الحقيقي، أو الوثوق والظن الاطمئناني المعدود علمًا عادة.

إذا تمهَّد هذا فقوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات:6]، يفيد أن المأمور به هو رفع الجهالة، وحصول العلم بمضمون الخبر، عندما يراد العمل به، وترتيب الأثر عليه، ففي الآية إثبات ما أثبته العقلاء، ونفي ما نفوه في هذا الباب، وهو إمضاء لا تأسيس[1].

(1) مرتكزات أساسية في الإعلام القرآني، 1977م، ص36-37، طهران.

وهكذا نرى أن خبر الواحد العدل (غير المتهم بالفسوق) مقبول باعتباره خبرًا من مصدر موثوق، وقد أعطى سياق القرآن الكريم (في آيات كثيرة الأخلاق التي يجب أن يتميَّز بها رجل الإعلام بوجه عام والتي يتميَّز بها الرسول الكريم ﷺ بوجه خاص، ومن هذه الأخلاق: الصبر، وحسن المعاملة، والجدل بالتي هي أحسن، والإعراض عن الجاهلين والمنافقين، والبُعد عن الغلظة) [1].

وقد كان البيان في القرآن ولا يزال ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ من نقل الرسالة إلى المتلقين المؤمنين ولم يحتاج ذلك إلى تحرير الرسالة لغويًّا؛ لأن المخاطبين كانوا هم العرب أنفسهم، ولكن بمرور الزمان واتساع المكان احتاجت الدعوة القرآنية في بلاغها إلى تفسير القرآن وشرحه وبيان السُنَّة وترجمة المعاني إلى اللغات الأخرى، وكانت هذه المرحلة اتصال من الدرجة الثانية بين الفقهاء والعلماء وبين العامة، والقرآن بمضامينه اللغوية والبلاغية الحيّة تفرد على لغة العرب التي كانت سائدة وقت نزوله فأعجزهم.

ولما لم يجاروه في بلاغته ومضامينه وإحكامه كان هذا التفوّق في (الرسالة) وسيلة في ذاتها للإعلام القرآني تفوق به على سائر فنون

(1) د. عبد العزيز شرف، الإعلام ولغة الحضارات، 1977م، ص20، دار المعارف، القاهرة.

الاتصال التي استخدمها العرب في جاهليتهم الأولى مثل الشعر والخطابة والمناظرة، والقرآن (رسالة) ووسيلة بهذا المفهوم، وفي هذا يقول علماء الإعلام المعاصرون بأن الرسائل الإعلامية تُقاس قوتها بمقدار ما تحدثه الرسالة من تجديد حينما يتم قياس اللغة الحاملة لتلك الرسالة، ولذلك اعتبر مارشال ماكلوهان الرسالة هي الوسيلة، فالمناهج الحديثة لدراسة وسائل الاتصال اليوم لا تعتمد على تحليل مضمون الرسالة وحدها، وإنما تعتمد أيضًا على الوسيلة نفسها وعلى القالب الثقافي الذي تعمل فيه هذه الوسيلة، ولذلك نجد أن خير مثال لمثل هذا الاستنتاج العلمي هو الإعجاز البلاغي والعلمي والثقافي الذي أحدثه القرآن في مجتمع الجزيرة العربية حين نزل، فعطَّل القرآن وسائل مثل الشعر بأغراضه المختلفة والمناظرة والخطابة، بل وأوجد أنماطًا جديدة من المفاهيم للشعر والنثر على حد سواء.

ثامنًا: القرآن (رسالة للاتصال الحضاري):

يعتبر الاتصال الثقافي، أو الحضاري خاصية عصرنا هذا؛ عصر (العالمية المركزية) أو العولمة. وفي القرآن الكريم نجد منابع للأفكار الكونية ذات الصبغة العالمية، وهو بذلك المصدر الأساس للمعرفة البشرية، بل أصلها فيما نرى ونعتقد، لأنه مقياس الخطأ والصواب، وعلى أساسه نبني ثقافتنا وعلومنا ومعارفنا ونقدّمها إلى العالم في شكل

فلسفة وأخلاق وفنون وآداب ومعرفة وفكر.

لذا فإن اتصال الوحي السماوي بالأرض نقل إلينا (رسالة) أحدثت تغييرًا جذريًّا في الحضارة الإنسانية والاجتماع البشري، وكان ذلك منطلقًا في التاريخ وتحوّلًا، وهذا ما يقوله القرآن نفسه: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم].

بإذن رب الناس هدى الرسول ﷺ الناس إلى نور العلم، فأخرجهم بذلك من ظلمة الجهل، وفي هذا وضوح تام ببيان (الفاصل بين النبوّة والألوهية) فلا يختلط الأمر أبدًا، إذًا فالوحي كوسيلة اتصال هو فاصل بين عهدين، بين عهد عبادة الناس لآلهة في الأرض، وبين عبادتهم لإله عليٍّ كبير ليس كمثله شيء، إنها نقلة ثقافية في مجال العقيدة من عالم جعل الإله مادة محسوسة إلى عالم معنوي آمن بالله والغيب والرسول والكتاب والوحي.

إن الأثر الحضاري للاتصال بالوحي على البشرية لا يخفى على ذوي العقول، لأنه أثر نشأ على رسالة السماء، وقام به تاريخ، وبنيت عليه مدنية وحضارة لم تقم على الفلسفة اليونانية أو القوانين الرومانية أو وصايا القساوسة، إنه اتصال خالق البشر بالبشر بكتاب افتتحه

بكلمة ﴿اقْرَأْ﴾. ﴿عَلَّمَ﴾ به الإنسان ﴿بِالْقَلَمِ﴾. ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾. وكانت أبرز معالم الاتصال الحضاري الذي أحدثه الوحي القرآني في مجالات هي [1]:

1. التوحيد في مواجهة التعدد.

2. الصدق في مواجهة الأساطير.

3. الوضوح في مواجهة الرموز.

4. الإيمان في مواجهة الإلحاد.

5. اليقين في مواجهة الشك.

6. المسئولية الفردية.

7. الإنسانية.

8. الالتزام الخلقي.

9. تكامل القيم الخيّرة.

10. الاعتقاد بالبعث والجزاء.

11. الحرية المنضبطة.

---

(1) أنور الجندي، مرجع سابق، ص111-112.

إن المعرفة الثقافية التي نقلها الاتصال بالوحي استهدف توثيق صلة الإنسان بربه، وتعريفه بالمسئولية الملقاة عليه، وتنظيم علائق البشر، فالاتصال بالوحي كان أخطر حدث كوني على الإطلاق؛ لأنه قرر مصير النوع الإنساني، وبالوحي تمَّت المعرفة بالله، والتفريق بين الحق والباطل، والخير والشر، ومن ثَمَّ تم بناء العالم على مبادئ تؤمن الطريق للوصول إلى الله عبادة وكفاحًا، وموتًا وخلودًا إلى مصيره الذي يقرره له.

فالوحي اتصال نقل المتلقين للرسالة من عبادة البشر إلى عبادة الله، وحررهم من أغلال الذنوب والآثام إلى حرية الطاعة وراحة الاستقامة وطلاقة الرضا عن الحق والذات، وسمّى القرآن هذه الراحة بالحياة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال].

إن الرسالة في (الاتصال القرآني) دعت إلى تنمية الوعي بالكون والحفاظ على نظام الحياة وعمارة الأرض والإصلاح فيها. إنه اتصال معرفي كبير ونهضة ثقافية عظمى أحدثت عالمًا جديدًا لم يكن موجودًا قبل الوحي والرسالة.

فالاتصال الرباني بالوحي وسيلة غيبية لأن القرآن تكليم من الله

الجليل، وإنزال على لسان جبريل، ولأن الوحي لغة هو الرسالة والإلهام والإشارة بالحواجب والكتابة بالقلم. يقول الفيروزآبادي في (بصائر ذوي التمييز): ويقال إن الوحي مختصٌّ برسالة مقترنة بخفة وسرعة، فسمّى التنزيل وحيًا لسرعة جبريل في أدائه، وخفّة قبوله على الرسول ﷺ، وإن جعلته من معنى الإشارة ؛ فكأنَّ الرسول ﷺ اطلع على المراد بإشارة جبريل، وإن جعلته بمعنى الكتابة فكأن جبريل أثبت آيات القرآن في قلب النبي ﷺ، كما يثبت المكتوب في اللوح بالكتابة. قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الشعراء].

مما تقدَّم من قول الفيروزآبادي نرى أن في الوحي عملية اتصالية متكاملة باختصاصها بنقل رسالة مقترنة بالسرعة مع خفة، أي: سهولة في التلقّي. وكذلك ما يحمل المعنى اللغوي من مدلول الإشارة في لغة العرب، وهذا مطابق لمصطلح الاتصال علميًّا في وصف الرسالة بالإشارة التي قد تكون باللغة، أو غيرها. إن الوحي الرباني - ولا عجب - بذا يكون أكمل أنواع الاتصال على الإطلاق في خواصه ورسالته ومحتواها وحالات التلقّي وأنماطها، وبذلك نكون قد قدمنا فهمًا متجددًا للاتصال الذي ظل مقصورًا في نطاق الاتصال العادي، أي غير الغيبي، أو المعنوي، مما حصر علم الاتصال في الاتصال

البشري الذي يجري في المجتمع الإنساني فحسب.

والاتصال القرآني اتصال (موضوعي في منطقه الإعلامي) وفي بلاغته بحيث يعطي الآخر المعادي أيضًا مساحة كاملة في عرض بضاعته، حيث امتازت الرسالة الإسلامية بالقرآن الكريم بالتفضل على أهل الباطل بنقل دعاويهم الفاسدة بلغته الراقية وألفاظه الجميلة دون أن ينقل هذا الفساد بلغة ركيكة، أو فاسدة مثله، وتفضّل القرآن الكريم على أهل الباطل بتوثيق باطلهم وقصصها، فصارت خالدة بخلود القرآن العظيم تفضلًا به عليهم، وتفضّل القرآن الكريم على هؤلاء بعرض حججهم الباطلة كاملة غير منقوصة إنصافًا لهم في موازنة كاملة في مواجهة الحق. أليس في هذا دليل على عظمة الاتصال القرآني، ورقي منطقه، وسمّوه في الاعتراف بالآخر المعادي ؟... فهذا يكفي الحق عزًّا ومجدًا [1].

* * *

(1) أبو زيد الإدريسي، في برنامجه (معالم قرآنية) بقناة «اقرأ» الفضائية، حلقة 22 يناير 2008م.